عود إلى حديث الانسانية !

[إلى أخي الأستاذ علي الطنطاوي]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية الفاسدة الشديدة الفساد الآن تحمل كثيرين على عدم الثقة بالإنسان وسوء الاعتقاد فيه ، فليست قصتك التي أهديتها إلى في العدد الماضي يا أخي شيئا مذكورا بجوار القصص التي تمثلها الجرائم السياسية الكبرى التي يعرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض ، ولا بجوار المخزاة الدامية المجرمة التي تمثلها الصهيونية ، وتنصرها الولايات المتحدة الأمريكية ! — تلك التي كانت أمل العالم فطواها الشيطان في جناحه الأسود فيما طوى من آمال السلام والخير — وتغضي عنها الامبراطورية البريطانية إغضاء الذليل الضعيف ، وهي التي خرجت منصورة من حرب كادت تودي بها ، أعلنتها ، وكان من أسباب إعلانها لها الانتصار لليهودية المضطهدة على يد النازية !

أجل ، ليست المسألة في الحكم على الإنسانية بأنها للخير أو للبوار مسألة قسوة فرد أو جريمة شخص ، فإن فساد الأفراد وبخاصة في عصور الانحطاط ، يكون من الكثرة بحيث لا يحصيه العادّ ولكن هل معنى ذلك أن نستسلم للواقع السيء ونحطم عقائدنا في الخير والصلاح ونلقي سلاح كفاحنا لها ؟

وقد كانت صيحتي « أومن بالإنسان » في إبان الحرب الأخيرة ردا لهجوم عنيف على قلبي من موجات التشاؤم والسخط والتبرم من ذلك المجتمع الإنساني الذي اشتعل بالحقد والقسوة والكفر بالقيم العليا للحياة الإنسانية فدمر كل شيء وكفر بكل شيء لأنه فارغ الفؤاد من العقائد السامية في الإنسان وفي الله خالق هذا الإنسان ومكرمه !

وكانت الفكرة التي تسلسل الحديث بها في هذا الموضوع إنما هي فرار بنفسي وعقائدها السامية في حياتي الشخصية وحياة النوع الذي أنتسب إليه .

وعندما يطم طوفان الفساد لا تجد النفس عاصما منه إلا باللجوء إلى صخرة الإيمان بتلك القيم العليا التي تعمر الوجود ، ولا تطمئن النفس إلى الحياة إلا إذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيبتها . فإذا رأيت المدن والمعابد والشيوخ والأطفال والمعجزة والمعاهد ، وكل ما قامت عليه الحضارة الإنسانية من القداسات والحرمات تدكه يد الحرب المجنونة الفاجرة ، فلي العذر أن ألتمس لنفسي ولمن شاء من الناس أفقا أرى فيه تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كي أوفق بين عقائدي الدينية في إرادة الله بالناس الخير مهما بدا هذا الخير ملفوفا بالشر ، وبين سير الحياة بالأحياء ... وإلا فقد عرضت نفسي لما تعرض له بعض من كتب إلى منذ حين يقول إن الحياة الإنسانية لغير غاية ، وإن الله — تعالى — قد فاتت عليه الغاية من خلق هذا النوع فقد خلقهم لعبادته ، فلم يعبده منهم إلا الأقل !

على أن كل ما ضاعف في الناس فعل الشر وسلبهم الاعتقاد في الخير هو ذلك اليأس من الخير ، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع البشري ، وذيوع هذا الاعتقاد في هؤلاء المحاربين المصريين ، هو الذي جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الإبقاء على شيء ، وما دامت الحياة للشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المعري :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في جندس تتصادم !

أحد أمرين لا ثالث لهما : إما أن نؤمن بأن هذا النوع الإنساني يمكن الإقلال من شره ، وإقامة حياته على مثل الدولة الإسلامية الأولى ، أو على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية ، وعندئذ نجد في أنفسنا العزائم على الجهاد والصبر والكفاح في هذا السبيل حتى نصل أو نقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا ... وعندئذ يستمر سير الحضارة والإصلاح مطردا ويظل

ولذلك لم يصبح النقد عن الفرنج فنا مستقلا له قواعده ومذاهبه إلا في القرن التاسع عشر بعد أن ارتقى علم النفس وانتشر وازدهر . ومنذ ذلك الحين تابع رقيه حتى بلغ أوجه وأدرك تمامه ، فأثر في فنون الأدب أبلغ التأثير ، وعدل في بعض أنواعها كل التعديل

فإذا أضفت إلى الأمور الخمسة التي تقدمت ، هذا الأمر السادس وهو جهل القدماء بعلم النفس كما كان يجهله غيرهم ، اجتمعت لديك الأسباب التي أدت إلى ضعف النقد عند العرب ، والنتائج التي أحدثت هذا النقص البادي في تاريخ الأدب

حسين الزيات

الخير له دولة فى الحياة كما أن للشر دولة ، ولا ضير على العقائد أن يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هو القانون الحبيب للنفس تلوذ به وتعتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة ... وإما أن نكفر بهذا النوع ونهدر قيمه الخلقية ، ونفقد آمالنا فى أنه مخلوق لغايات كريمة ، ولا نستمع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق والدعوة للخير والغضب على الشر ، وعندئذ فلنخلع قناع المدنية عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور ، ولنفضح كل مواضعات النفاق الاجتماعى ، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان أخاديع أو أغلوطات عظيمة من عبقريات التاريخ الكاذب المدلس ، وأن الإنسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية لكل فرد فى الأمة ، ولكل أمة فى الأمم يرعى فيها الفرد مصلحته الخاصة ، والأمة مصلحتها الذاتية ، وتسعى كل أمة أن تكون أربى من غيرها ، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها ، وإنما هى قطعان وحيوانات بشرية تسعى « لتعيش » فى أضيق حيز ، وهو حيز « الذاتية » .

وأليست هذه الحياة التى وصفنا على هذا الفرض هى الحياة التى تحياها الأمم وتشقى بها كل أمة وتدمر كل حضارة ؟ ! فإذا أردنا أن نفر منها ، فلماذا لا نؤمن بفلسفة تناقضها وتحاربها ؟ ! وهل هذه الفلسفة إلا أن « نؤمن بالإنسانية الواحدة » . وأنها مخلوقة لغايات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب الأسود والفحم الأسود والفحم الأبيض » وإنما هى البحث عن كلمات الله فى الطبيعة بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة » المادية وحدها ؟ .

وأليست هذه الغاية لو تحققت جديرة بأن تشعر الناس جميعا أنهم نوع واحد غريب الوضع فى هذا الكون ! لأنه وحده يفتح أبواب الطبيعة بابا فبابا ، ويتدرج فى تسخير قواها درجة درجة حتى وضع يده فى منابعها ، وحطم أسوار « الذرة » التى هى وحدة بناء الكون المادى .

ذلك هو « الوضع الأصيل » للانسانية الذى يجب أن يرصدها منه الراصدون ليعلموا أى كائن هذا الإنسان الذى يحملونه فى أجسادهم ويبادلونه ماصح وما فسد من شأنه وشئونهم !

أما أن يرصده راصد فى « ولد طاق » ، أو « وحش الاسكندرية » أو « سفاح باريس » الأخير أو غير أولئك من الثمرات الإنسانية المطبوبة الملوثة التى سقطت وتلوثت لضعف روابطها بفروع الشجرة الإنسانية ، ثم يحكم عليه كله لذلك ، فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يجعل عقله ميزان حكم على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التى لا تنفد فى حرب الخير والشر ، وعراك الصلاح والفساد ، وصراع الموت والحياة ، وقذف الحق على الباطل !

وإنى أسأل أخى الطنطاوى : لماذا يفقد ثقته وإيمانه بالإنسانية لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء ؟ هل جميع الأبناء مثل هذا الابن العاق ؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل الشرير ؟ أليس لأن قلبك ينكره ؟ إذاً فى قلوب الناس نوع خير ينكر الشر ويضربه مثلا ، ويكتبه قصة يشنع بها ويسمع بصاحبها ، ويجد فى قلوب الناس صدى لألم قلبه ، لأن « البر لا يبلى » . وما دام فى الإنسانية خير وشر فلم نيأس منها ونزرى بقضيتها ؟ لماذا نحرق الحقل كله لنتخلص من الزوان ؟ !

إن الأولى بنا أن نعتقد أن الإنسانية كحقل من النبات ، الأصل فيه أن ينبت أكثره نباتا حسنا ، ويؤتى أكله وثمره إذا تعهدناه بالسقى والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التى تعطبه وتفسده وتجعل أكثره ينبت نباتا سيئا . ولا بد أن يكون فيه المعوج بالطبيعة ولكنه لا يكون الأكثر فى العادة .

ولن يفقد الزارع أمله من الزرع إذا ما خانه حظه فى موسم من المواسم فييأس ويقول : إن هذا النوع من الزرع ملعون ! ولن أزرعه ، إلا إذا كان أحمق .

ونحن الذين نعلم أن كل مولود يولد على الفطرة ثم تلحقه عوامل التربية والبيئة فيتكيف بها ينبغى لنا أن نتربص ونتوجه بكل جهود الإصلاح إلى قلوب الطفولة منطقة النمو الإنسانى ، ونجتهد أن تنبت نباتا طيبا وعلى الله الباقى !

ذلك حديث أذكر به صديقى بقضية الإنسانية والإيمان بها ، وآثار ذلك وضده من النواحى العملية والاجتماعية .

غير أن للقضية وضعا آخر من الناحية الفلسفية قد لخصته فى تلك العبارة التى لا شك رآها الصديق فى كتابى عن القضية وهى :

« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون ؟ فلن يؤمن الفرد الإنسانى بهما إن لم يؤمن بنوعه ؟ لأن عقل الإنسان هو النظار الذى ندركها به ، فإن أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا